Décembre 2001
Ramallah-Nazareth-Amman
Création : Le lit de l'étrangère de P. Lama
Textes de M. Darwich

موسيقى لاما تعانق أشعار درويش عبر «سرير الغريبة»

كلما جفت الفكرةُ ازدهرت جوقةُ المنشدين

■ عمان – علي عبد الامير

للمرة الاولى تحظى قصائد الشاعر محمود درويش، بقراءة موسيقية تعتمد الغناء الاوروبي الكلاسيكي (الاوبرالي) وبنية لحنية وفق شكل موسيقي اقرب الى ما تكرسه «موسيقى الصالة» وذلك عبر الحفل الذي احيته مجموعة موسيقية فرنسية بقيادة فريدريك ليجي في «النادي الارثوذكسي» مساء امس. وفيه اقترح الموسيقار الفلسطيني باتريك لاما مستوى من القراءة الموسيقية لنص درويش «سرير الغريبة»، بدت فيه موسيقى المفردة العربية مبددة ما بين الشكل الغنائي الاوروبي الاوبرالي و«عجمة» الصوت التي ادى الالحان، المغنية الفرنسية الاسبانية الاصل داريا دادفاز والمغني الفرنسية غايل دوكيخيت.

عزفت المجموعة المتكونة من عازفي تشيللو، وعازف كونترباص، وعازفي فيولا وعازفي كمان تراكيب لحنية سلسة غير انها بدت غريبة عن النص العربي الروح والايقاع، فلا موسيقى الكلمات كانت حاضرة، ولا دلالات الصورة الشعرية، وهما عنصران غاية في الاهمية، تعتمد عليها نصوص درويش ومنها «سرير الغريبة».

ويحيلنا هذا الشكل الموسيقي الاوروبي في تعامله مع النص الشعري العربي الى تجربة مماثلة قدمتها المؤلفة الموسيقية اغنش بشير في تلحين نصوص الشاعر والناقد والروائي الراحل جبرا ابراهيم جبرا «اعجوبة الحياة» وقدمتها بصوتها الفنانة الفلسطينية تانيا تماري ناصر. وكان من اهم اسباب نجاح تلك التجربة القدرة اللافتة للفنانة تمارا في تحويل الشكل الغنائي الاوروبي (الاوبرالي) الى روحية عربية، حين كان لسانها العربي الصداح قادرا على منح المفردات العربية حضورها في غناء لم تكن على صلة به من قريب او بعيد (الغناء الاوروبي الكلاسيكي).

اللحن الذي صاغه لاما وان كان خافت النبرات. عالج النص الشعري بصفته نصا قائما على تجربة روحية وفردية بقدر ما هي تجربة انسانية معلنة. هكذا بدت الموسيقى وكأنها تلعب على الوجدان العميق الخفي، كي تستطيع اظهار سطوعه والتماعاته الانسانية. وكان للغناء دور لو توفرت طاقات غنائية عربية تؤدي الغناء الاوروبي الكلاسيكي، وكان من الممكن ان تنسجم الموسيقى مع الصوت الغنائي لاداء لوحة نادرة: شعر عربي الهوى والروح وموسيقى اوروبية.

بدأ الفرنسي غايل دوكيخيت غناء المقاطع الاولى من نص «سرير الغريبة» غير ان صعوبة العربية على لسانه كانت واضحة، مثلما كانت واضحة ايضا صعوبة تلقي الغناء (الاوبرالي) على اذن المستمع المحلي (الجمهور اكتظت به قاعة وهبة تماري في النادي الارثوذكسي). الواضح في تلك المقاطع من شعر درويش كان الابتكار النغمي لباتريك لاما، وكم كان عمله سيكون في اقصى درجات الابتكار، لو كتب «موسيقى مجردة» يقرأ من خلالها نص درويش، او في اجراء فني اخر، كأن يجعل الموسيقى الاوروبية الروح منفصلة عن غناء عربي تام عبر الاستعانة باصوات تجيد روحيتها العربية ولا تشعر بالانفصال عن القالب الموسيقي الاوروبي.

مقاربة النص الشعري العربي في قالب موسيقي غربي كلاسيكي، تثير اكثر من سؤال، وهي اثارت في حفل امس همسا تحول عند الجمهور الى همهمات استدعت من المغنية داريا تدخلا طلبت من خلاله تفهما لصعوبة تقديم اللغة العربية في قالب غنائي اوبرالي. وهذه اشارة ساهمت لاحقا في تواصل الجمهور عبر انصات تام مع قصيدة حملت عنوان «جفاف» وفيه برعت داريا في غناء:

«هذه سنة صعبة
لم يعدنا الخريف بشيء،
ولم ننتظر رسلا
والجفاف كما هو: ارض معدنة
وسماء مذهبة،
فيكفي جسدي معبدي
..... وعليك الوصول الى خبز روحي
تعرف نفسك. لا حد لي
ان اردت:
وسع حقلي بسنبلة
ووسع هنا الفضاء بزغلة.
فيكفي جسدي بلدي»

نداءات الجفاف التي يؤكدها نص درويش قابلتها نداءات العذوبة في موسيقى لاما، كأن الموسيقار الفلسطيني هنا يقيم معادلا موضوعيا بين النغم والكلمات، بين تأثير الجملة الموسيقية وجرس الجملة الشعرية. وهو حين يعتمد الصوت الغنائي كاداة في عمله لا يرى فيه وسيلة التوصيل الوحيدة. انما يعتبره جزءا من الاثر الموسيقي وانطلاقا من فكرة ان «الصوت البشري هو آلة موسيقية في حد ذاته». وهنا يأتي صوت دوكيخيت منشدا بلوعة:

«والجفاف على حاله: كلما
جفت الفكرة ازدهرت جوقة
المنشدين المريدين: ماء، وماء
فما حاجتي للنبوءة؟ ان الملائكة
الطيبين ضيوف على غيمة الخائفين.
وما حاجتي للكتابة ما دام ما بك... بي؟
جسدي يتفتح في جسدي».

ويتصل صوت المغني المجروح بنداءات العذوبة كما في صوت المغنية اذ يغنيان معا.

واشتراك الصوتين الرجالي والنسوي معا له دلالته هنا لا سيما وانهما غنيا مقطعا من النص فيه دلالات الولادة، والتفتح والخصب:

«والجفاف يودع سبع السنين العجاف
فلا بد من هدنة في المدينة،
لا بد من ماعز يقضم العشب
من كتب البابليين او غيرهم،
كي تصير السماء حقيقة...»

حتى تختتم المغنية بصوتها الندي «المغناة» بمقطع من شعر درويش المنتمي بعمق الى الحياة وفكرتها، الى الذات المجبولة على الامل:

«فأضيء عتمتي ودمي بنبيذك
واسكن، معي، جسدي!»

وكان استاذ الادب العربي في الجامعة الاردنية ونائب رئيس اللجنة الثقافية في النادي الارثوذكسي الدكتور سمير قطامي قدم للامسية منوها بعلاقة الشعر والموسيقى:

«في هذه الامسية يتم انق شعر محمود درويش بالموسيقى والغناء، ويحلق اللحن على اجنحة الشعر وتكتسي الكلمات غلالات سماوية رائعة في عزف سيمفوني اخاذ، للحب والوطن، تتحول فيه الكلمات الى تراتيل عذبة».

من جهته وصف المايسترو فريدريك ليجي حضوره الى عمان وتقديم عمل باتريك لاما ضمن جولة كانت اخذته، من قبل، الى الناصرة ورام الله بانه «سعادة عظيمة» منوها بان «مغناة سرير الغريبة» وجاءت عبر موسيقار يحس الكلمة العربية ويكتب عنها موسيقى تظهر عمقها وان كانت موسيقى اوروبية».

يذكر ان «مغناة سرير الغريبة» نالت دعما من المجموعة الاوروبية ضمن نهجها في اقامة اتصال ثقافي ما بين دول شمال البحر المتوسط وجنوبه.

الموسيقار ليجي يقود الاوركسترا: فليكن جسدي معبدي (رعد العضايلة)